التجارة عند الامم القديمة الى عهد العرب

بقلم عيسى اسكندر المعلوف صاحب مجلة (الآثار) ومؤلف تاريخ الاسر الشرقية القديم

تسمية التجارة وتعريفها

التجارة لفظة سامية قال اللغويون فيها : انهُ ليس في كلام العرب تاء اصلية بعدها جيم غير لفظ تجر ومشتقاتها وهي بمعنى البيع والشراء معاً. والفعل منها أتجر وتاجر واتجر فهو تاجر وهي تاجرة والصناعة التجارة . ومن معاني التاجر عندهم بائع الخمر والحاذق . والمتجر الاتجار وبضاعة التاجر ايضاً . وارض مُتَجَرَة يُتَّجر فيها واليها

ومن اسماء التاجر الاعجمية (القسطار) تعريب *Qaestor* (كوستور) الرومية وهو الخازن للاموال التي توزع على الجنود والموظفين وتأتي بمعنى (الصيرفي) ايضاً. و(القسطار) يونانيتها *Seatarius* بمعنى موظف بزنطي وهو في معانيه ايضاً عرَّبها العرب

اما اسم التجارة الافرنجي فهو عند الفرنسيين والانكليز *Commerce* من اللاتينية *Commercium* وهي مركبة من كلتين *Cam* بمعنى ضم وجمع و *Merx* بمعنى بضاعة . اي (جمع البضائع) ومنها اشتقاقها باللغات الاوربية

اما (حد التجارة) فافضله قول ابن خلدون فيلسوف العرب الاجتماعي وهو : «التجارة محاولة الكسب بتنمية المال بشراء السلع بالرخص وبيعها بالغلاء أياً ما كانت السلعة» وهو اشبه بحدها عند الافرنج اليوم . ولهُ في فلسفة التجارة مالا يجارى فيه وهو قولهُ :

« أن معنى التجارة تنمية المال بشراء البضائع ومحاولة بيعها باكثر من ثمن الشراء اما بانتظار حوالة الاسواق او نقلها الى بلد هي فيه اتفق واغلى . او بيعها بالغلاء على الآجال وهذا الربح بالنسبة الى رأس المال يسير الا ان المال اذا كان كثيراً عظم الربح لان القليل في الكثير كثير . ثم لا بُدَّ في محاولة هذه التنمية من حصول هذا المال بايدي الباعة في شراء البضائع وبيعها ومعاملتهم في تقاضي اثمانها

«واهل الصَّفَة قليل فلا بُد من الغش والتطفيف المجحف بالبضائع ومن المطل في الاثمان المجحف بالربح . ومن الجحود والانكار والمحت لرأس المال فيعاني التاجر من ذلك احوالاً صعبة ولا يكاد يحصل على ذلك الثاني في الربح الا بعظم العناء والمشقة اولا يحصل ويتلاشى رأس ماله . فان كان جريئاً على الخصومة بصيراً بالحساب شديد المحاكة مقداماً

على الحكام كان ذلك اقرب لهُ الى النصفة بجرأته وتاحكته . والا فلابدَّ لهُ من جامٍ يدرع به يوقع لهُ الهيبة عند الباعة ويحمل الحكام على انصافهِ من معامليهِ فيحصل لهُ في ذلك النجحة في ماله طوعاً في الاول وكرهاً في الثاني

«واما من كان فاقداً للجرأة والاقدام من نفسه فاقد الجاه من الحكام فينبغي لهُ ان يجتنب الاحتراف بالتجارة لانهُ يعرض مالهُ للضياع والذهاب ويصيره مأكلةً لباعة لان الناس وخصوصاً الرعاع والباعة شرهون الى ما في ايدي سواهم متوثبون عليهم» انتهى

الاقوال في التجارة

لقد كثرت اقوال الناس منذ القديم في التجارة والاقتصاد والاثراء وهي نتيجة تجاربهم فمن ذلك قول سقراط الفيلسوف اليوناني : «لا تكون عنايتك بأن تكسب شيئاً كعنايتك بحسن استعمال ما تكسبهُ» . وقال افلاطون . «من كان غنيًّا فيقتصد ومن كان فقيراً فليُكدمن العمل» . ورأى غنيٌّ ورث مالاً كثيراً وضياعاً فاتلفها . فقال «رأيت الارض تبلع الناس وهذا الانسان يلع الارض»

ويقول المثل الاسباني : «من يقصد ان يثري بسنة واحدة يعلّق في المشنقة بعد ستة اشهر» . والمثل الروسي : «عند ما يتكلم المال يصمت الحق» . والمثل اليباني «من يبتاع مالاً يحتاج اليهِ يبيع ما يحتاج اليهِ» وعند عامتنا مثل بهذا المعنى نفسهِ . ويقول اليونانيون ايضاً في أمثالهم : «فكر بالحاجة عند الغنى . وفي الحاجة لا تطل نفسك بالغنى» . و«حيثما تكون الارباح فهناك الخسائر» و «تحصيل المال كالحفر بالابرة . اما انفاقهُ فكمثل تسرّب الماء في الرمل» . ويقول المثل التركي «من اشترى رخيصاً فقد اشترى غالياً . ومن اشترى غالياً لم يغشّ» . ومن امثال عامتنا بهذا المعنى قولهم : «يا مسترخص اللحم عند المرق تندم» وقولهم : «الرخيص غالي»

وقال شكسبير الانكليزي : «لا استدين ولا ادين فان الدَّين طريق للخراب» . وقال المركيز منزوز : «من لا يمرّض نفسهُ للربح والخسارة فهو جبان او صعلوك» . وقال السر لتون : «ان المال يولّد المال» وهو الذي وضع خمس قواعد لطلاّب الاثراء (اولها) الوقت (٢) الاقتصاد (٣) الترتيب في الانفاق (٤) الثبات على العمل (٥) الصدق في المعاملة . وقال فؤاد باشا العثماني : «كنتُ افضل أن اكون تاجراً لو قدرت ان لا اكون سياسياً» ولعامّتنا اقوال كثيرة منها قولهم : «تاجر بقرش تنسمى بالبلد تاجر وبالف قرش عند الناس لاتاجر» . و «التجارة، ربح وخسارة» و «من اشترى ما لا يحتاج اليهِ باع ما يحتاج اليهِ» و «اذا تاجرنا بالكفان (الاكفان) يبطّلو الناس يموتوا»

اسكلة التجارة

ان موقع بلادنا (سورية) الطبيعي واتصاله من جهة الغرب بالبحر المتوسط ومن الشرق ببادية سورية ومن الشمال بارض الاشوريين والكلدانيين ومن الجنوب بالبلاد العربية وما اليها جعلها مباءة للتجارة البرية والبحرية وسمي البحر الابيض المتوسط لتوسطه بين القارات الثلاث الكبرى آسية وافريقية واوربة . وفي بلادنا تلاقى هذه الطرق وتتعارض

وترى معظم اقسام بلادنا زراعية وكثيراً من مدنها صناعية فلا عجب اذا كانت التجارة قد اشتهرت فيها منذ القديم وعُرف ابناؤها في العالم باجتهادهم واسفارهم الشاقة الطويلة الى اقاصي القارات المعروفة في القديم والى قارة اميركا الجديدة في الحديث

ومن امعن النظر في كتابات نهر الكلب المحفورة في صخوره الضخمة قرب جونيه في لبنان وغيرها من الكتابات الداخلية والساحلية عرف كيف تصافحت الامم القديمة في ساحات بلادنا وكيف كان حسن موقعها داعياً لطموح الملوك اليها . فضلاً عما في جميع نواحيها من الكتابات والآثار والشواهد الدالة على عمرانها واتساع حضارتها وعظمة مجدها وكفى بما اكتشف اخيراً في جبيل والمشرفة (قرب حمص) وغيرهما برهاناً على صدق قولنا

ولا يخفى ان حسن موقع البلدان وثروتها ورواج اسواق التجارة فيها هي كلها من اهم عوامل التحاسد حتى الآن . بل هي من مسببات الحروب الدامية والوقائع المهلكة وشاهدنا قريب في الحرب الكبرى الاخيرة التي كان سببها التجارة ومضرم وطيسها التنافس في اكتساب الثروة وتوسيع نطاق الاثراء والكسب

ومن المعلوم ان الطبيعة كلما ساعدت الانسان بخصبها وجودة موقعها تكاسل وكلما قاومته وعادته نشط واجتهد فالناس الذين لم تكن موارد ارتزاقهم من الزراعة والصناعة موفورة تراهم مخروا البحار وذرعوا القفار وسهلوا الصعاب سعياً لكسب المال وتوفير الاثراء والذين كثرت مواردهم في القديم اكتفوا بها وان كان بعضهم اراد تنميتها فاتجروا وربحوا

فالفينيقيون سكان سواحلنا البحرية كانوا اول من نشر التجارة البرية والبحرية واقتفت آثارهم الامم كما سترى . على أن الامم المصرية وسكان العراق ومن اشبههم كانوا يكتفون بموارد زراعتهم الغنية لخصب اراضيهم والمشهور اليوم بين الاقتصاديين ان الامم التجارية هي التي تسنى لها ثلاثة اسباب (اولها) حسن موقعها الجغرافي براً وبحراً و (ثانيها) كثرة مناجمها الفحمية والمعدنية و (ثالثها) معاهداتها التجارية والاقتصادية مع الامم الاخرى . فعلى هذه الدعائم الثلاث ترتكز معقل التجارة الحصين مع سهولة المواصلات

كان السفر من لندن الى اوستراليا يستغرق سبعة اشهر ونصفاً فلما سارت القطارات

والسفن التجارية بينهما جعلت المسافة ٣٥ يوماً . وكانت المسافة بين الشرق الاقصى واوربة بضعة اشهر فصارت الآن ١٩ يوماً . وهذا كان قبل ان تجارت انطيارات في الهواء تقطع الآن ما بين سورية وبغداد بيوم كامل بعد ان كانت المسافة بينهما نحو شهر

وكانت السفن تسير في البحار بحركة الهواء فتتجه بحركة مهبّه الى الجهة التي تقصدها فاذا خالفتها الريح بقيت اياماً وشهوراً في عرض البحر تتوقع الفرج ولذلك قال شاعرنا العربي:

ما كل ما يتمنى المرء يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السفنُ

ولابن جبير الرحالة العربي في وصف مرفأ عكا التجاري والرياح التي تهب عليه كلام علميٌّ بليغ. وقد صارت بواخر هذا العصر تقطع المسافات البحرية بدون عائق مهما اشتدت الريح وتعاظمت العواصف فلهذا تيسرت ذرائع التجارة في البحر والبر بتقريب المسافات وكثرة الطيارات وسرعة نقل الاخبار

التجارة قديمة عند الامم تولدت في الزراعة والصناعة كما مر وجاءت الآثار المكتشفة تثبت شؤونها وما تقلب عليها وتصف طرقها . فكانت للامم على اختلافها رموز واشارات وعلامات تدل على التجارة منها النسر الذي يحمل برجليه المفاتيح كما نراه في عتبة هيكل الشمس الميا في بعلبك وغيرها . ولا يخفى ان الامم القديمة ألهت الزراعة والصناعة فاتخذت لها محامين من الآلهة ومحطات من الهياكل متبرّكة بها متفائلة بنجاحها بواسطتها وكثيراً ما نذر لها التجار من ارباحهم ماينفق على تزيينها وتشييد هيا كلها مما لا تزال آثار بعلبك وتدمر وغيرهما من البلدان التجارية شاهدة به

كان اصل المبايعة قديماً بالمقايضة اي مبادلة متاع بآخر مما يحتاج اليه كل من البائع والشاري فيستبدل الواحد بالآخر . ثم تطوّرت التجارة بتطور الامم فكانت ترتقي بارتقائها وتحط بانحطاطها . وكانت طريق التجارة عند القدماء تسير في خطين (الاولى) في البحر الاحمر (القلزم) الى مصر والاسكندرية . و (الثاني) من خليج العجم فبادية الشام . فكانت محطتها البرية بترا ثم تدمر وقوافلها وعجلاتها تسير على طرق مرصوفة ذات محطات للاستراحة وقلاع للحصار والحفراء وكانت في تدمر ضريبة كبيرة على القوافل يتقاضاها وكلاء خاصون بها تشهد لها آثارها العظيمة وابنيتها الفخمة وهي لطبقات الخاصة من الاغنياء والتجار . واليكم الآن تاريخ التجارة عن اشهر الامم القديمة

تجارة الفينيقيين

كانت بلاد فلسطين التي ملكها الفينيقيون مدة ذات خصب في بعض انحائها فألهتهم عن التجارة الى ان تغلب عليها الاسرائيليون واختاروا منها ما كان كثير الريع وافر الحاصلات فاضطر الفينيقيون اذ ذاك الى الاتجار لان مدنهم الساحلية لم تكن كلها خصبة ولا متسعة

فقام سكان مدينة صور وما يتبعها من الولايات وسيروا سفنهم وقوافلهم للتجارة في ما وراء البحار في المدن والبلدان السحيقة . وهكذا قلّ عن سكان صيدا وما اليها وبقية المدن البحرية التي امتلكوها . وكانت مصانعهم ومعاملهم شهيرة فيها

فكانت صناعاتهم النفيسة تحملها السفن والقوافل الى البلدان تعود بحاصلات تلك الاقطار اما مبادلة واما بوزنات الذهب والفضة حتى ملأت السفن البحار والقوافل البرور. واخترعوا الكتابة وتسير السفن بالابرة المغناطيسية فعززوا بها التجارة وربطوا العالم بعضه ببعض

وذكرت مجلة المقتطف (٣٢ : ٧٧٠) ان رئيس فرع الجغرافية من مجمع تقدم العلوم البريطاني قال في كلامه عن (الجغرافية والتجارة) مظرتاً الفينيقيين : ان موقع مدنهم الجغرافي بين البحر المتوسط غرباً والعراق وخليج فارس او طريق الهند شرقاً جعل زمام التجارة في يدهم وصبّ عليهم مبازيب الثروة فان الذي يسهل عليهم ان يتاجروا بمصنوعاتهم يتيسر لهم صنع المصنوعات واتقانها . فجعل الفينيقيون ينسجون المنسوجات الرقيقة من الصوف والكتان ويصبغونها بالالوان الجميلة ويصنعون الآنية الزجاجية والمعدنية ويبثون بها الى البلدان القاصية حيث مواد الطعام كثيرة وجلبها بحراً سهل قليل النفقة

«ولم تنحصر فائدة التجارة في الفينيقيين بل شملت الامم التي اتجروا معها او تعلموا التجارة منهم كاليونان . الى ان قام الاسكندر المكدوني وحاول نزع تجارة الشرق من يد الفينيقيين فهدم مدينتهم صور وبنى الاسكندرية بدلاً منها لكي تتحول تجارة الشرق اليها فكان له ما عنى» انتهى — وذلك قبل الميلاد بثلاثة قرون فكان الفينيقيون محتكرين للتجارتين البرية والبحرية ومفاتيحها بايديهم الى عهد اليونان والرومان فكانت طرقهم في سورية الشمالية والوسطى وبادية الشام وتدمر الى الاقطار البعيدة برّاً وفي البحر المتوسط وغيره بحراً الى المرافئ السحيقة . وكان للتجارة الفينيقية في آسية ثلاث طرق . فالجنوبية منها كانت قوافلها تذرع الفلوات الى اليمن وحضرموت وعمان ناقلة اليها مصنوعاتها وحاصلات بلادها وحاملة منها الحجارة الكريمة والذهب والبخور واللبان والمر واللؤلؤ والعاج والابنوس . وتحمل الى مرافئ عدن بضائع الهند وصناعاتها . ومن اطراف اليمن بضائع الحبشة

والطريق الشرقية كانت قوافلها تنهب السهول الى جهات نينوى مارة بحماه وحلب ونصيبين فتتجر بآثار بلادها الزراعية والصناعية مع الاشوريين وتنقل الى بلادها حاصلاتهم وصناعاتهم مثل انسجة الكتان والقطن وحرير الصين والحجارة الكريمة . ولها طريق اخرى تمر فيها بتدمر وتسلك على الفرات الى بابل فتتجر مع الكلدانيين

والطريق الشمالية كانت الى ارمينية حتى بلاد الكرج والقوقاز والبحر الاسود وبحر

قزوين فتجلب منها الرقيق وآنية النحاس والخيل

اما الطريق البرية فكانت بالبحر او بضايق البر احياناً فتسير سفنهم الشراعية العظيمة في البحر الاحمر الى خليج العقبة والمحيط الهندي . وكانت الشركات التجارية بين حيرام ملك صور وسليمان ملك اسرائيل تجلب الذهب من اوفير كما ذكر سفر اخبار الايام الثاني من التوراة وكانت تجارتهم مع بلاد مصر مهمة حتى ذكر هيرودوتوس المؤرخ بان الفينيقيين وحدهم كانوا الناقلين لبضائع مصر وحاصلاتها الى جميع الاقطار

وكان لتجارتهم في اوربة طريقان ﴿ الاول ﴾ من جهة جزائر البحر المتوسط حيث كانت مواقف سفنهم التي مخروا بها البحار الى بلاد اليونان وصقلية وسردينية وكورسكه الى فرنسة وايطالية وكانت لهم محطة تجارية عظيمة في بحر ايجه واحتكروا الذهب من بعض مدنه و ﴿ الثاني ﴾ من جهة افريقية ومضيق جبل طارق او بحر الزقاق حيث عبروا من قرطاجنه التي استعمروها الى ترشيش (اسبانية) والبرتغال وبعض جزائر المحيط الاتلنتيكي وكان لتجارهم قوافل في تلك البلدان تطوي الارض الى داخلية جرمانية وفرنسة . قال حزقيال في الفصل الرابع والعشرين يصف تجارة صور : « جميع سفن البحر وملاحوها كانوا فيك لترويج سوعتك . ترشيش متجرة معك في كثرة كل غنى . وبالفضة والحديد والقصدير والرصاص اقامت اسواقك »

فكان التجار الفينيقيون يرافقون قوافلهم ويدرسون شؤون البلدان ويتخذون مخازن لهم في المدن الكثيرة التي تنقل اليها سفنهم وقوافلهم بضائعهم وصناعاتهم فيستبدلونها ويقايضون بها ويرسلون بضائع ومصنوعات تلك البلدان الى بلادهم واهم مصنوعات الفينيقيين الارجوان او البرفير الذي كانت تتخذ منهُ اردية الملوك وكانوا قد تفردوا بعمله في معامل صور وصيدا وردوس وقبرص وبلاد الموره في الارخبيل . والزجاج في مصانع صرفند وصيدا . والاواني الخزفية والمعدنية ولاسيما الصفر والشبه . والحاصلات كالزيت والتمر والموز والحنطة . ومما كانوا يستجلبونهُ من اسبانية وانكلترة الذهب والفضة والحديد والقصدير والزفت حتى ان ارسطو الفيلسوف اليوناني قال يصف ثروتهم التجارية : (ان الفينيقيين استبدلوا بزيتهم فضة ترشيش ولما ضاقت سفنهم عن شحنها صاغوا منها ادواتهم وآنيتهم حتى مراسي سفنهم (الاناجر) » وقال ليرمان الفرنسي : كانت مصر واشور مبعث التمدن المادي وكانت فينيقية سفيرته التي نشرتهُ في العالم »

وقد كتم الفينيقيون طرق البحر عن غيرهم فاحتكروا التجارة احقاباً طويلة واكتشفوا صنائع الامم واقاموا الاسواق للبيع والشراء ونمت شهرتهم التجارية في القرن الرابع عشر قبل الميلاد

الشاعر الاسباني فيلاسباسا
الذي ينحدر من أصل عربي

مقتطف نوفمبر ١٩٢٩
أمام الصفحة ٤٠٩

وداعاً يا رفيقي القديم

تصوير متانيا

مقتطف نوفمبر ١٩٢٩

أمام الصفحة ٤٠٥